التكامل المعرفي في القرآن الكريم

أ. د. زياد خليل الدغامين*

تاريخ وصول البحث: ٢٠١٠/٩/٥م تاريخ قبول البحث: ٢٠١١/٣/١٦م

ملخص

يتناول هذا البحث قضية التكامل المعرفي بين العلوم من حيث مفهومه وأهميته وضرورته وآثاره وأسسه ومجالاته ومقاصده، وذلك لما تواجهه المعرفة من أزمة من حيث تشتتها، وعدم انتظام أهدافها في سلك الغايات العظمى للوجود الإنساني والكوني.

وبما أنّ التكامل المعرفي هو الإدراك التامّ الواعي للحقائق المتصلة بالوجود الإلهي والكوني والإنساني، وما ينتظم به من سنن، وما ينشأ عنه من علوم ومعارف، تظهر به الآثار العملية والجمالية للمعرفة في ربطها أجزاء ذلك الوجود وانتظام علاقاته وفق هداية الوحي، فلهذا التكامل أسس تتمثل في الإيمان بالله تعالى، وأسماء الله الحسنى، وخلافة الإنسان في الأرض، والطبيعية الإنسانية، والسنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان.

كذلك، فإنّ له مجالات تشمل ميادين الحياة العلمية، والاجتماعية، والسياسية، ...، وهي حقيقة ليست غريبة عن الطبيعة الإنسانية. وله مقاصد من أبرزها تصحيح مفاهيم الأجيال حول الرؤية الكونية التي تفسر مظاهر الوجود، وتصحيح مسار العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية وفق تلك الرؤية.

Abstract

This study deals with the issue of knowledge integration between sciences regarding its concept, because knowledge is facing a crisis regarding its dispersion, and lack of congruity of aims with the major ends of human existence and ends of the universe.

Knowledge integration is the complete awareness comprehension of realites about divine, worldly and human existence, besides their laws and the sciences originated from them, which manifest the scientific and aesthetic effects of knowledge in connecting the parts of existence and the order of their relations according the guidence of revelation.

This integration has principled emboded in believing in God, His Fairest Names, man's caliphate on earth, human nature and the God's laws regarding the wolrld, man and life.

Knowledge integration has fields include practical life, scientific, social and political; it has aims among which is correction of generations concepts about world's viewing which explains the manifestations of existence, it also corrects the path of social and human sciences according to this viewing.

المقدمة:

فقدان المعرفة المتعلقة بالرؤية الكلية للكون والعالم والإنسان، وابتعادها عن مقاصد حياة الإنسان، وغياب وحدة الهدف والغاية الجامعة لمفرداتها، قضية أصبحت تشكل تحدياً للأمة المسلمة بوصفها مستوردة للمعرفة، ولما يحمله ذلك من آثار سلبية على تشكيل عقل المسلم، وما رافق ذلك من الدعوة إلى إقصاء الوحي عن منابر التربية والتوجيه والتعليم والنهضة بالأمة، وفسح المجال لتلك العلوم المستوردة التي تمحورت حول الإنسان والمجتمع، والتي نشأت في ضوء ما يحمله واضعها من فلسفة مادية تجسّد نظرته إلى الكون والحياة والإنسان، بل نظرته إلى الخالق الجليل سبحانه وتعالى كي تحتلّ المكانة العظمى، وتتفيّأ المنزلة الأهم في التربية والتعليم، دون أيّ اعتبار لتكامل خلق الإنسان وتكوينه ومتطلباته، فتجسّدت في هذه العلوم معاني تتنافر وغاية

* أستاذ، كلية الشريعة، جامعة آل البيت.

وجود الإنسان فكراً وسلوكاً.

ولما نشأت تلك العلوم وترعرعت واشتدّ عودها على أساس من تلك النظرة، ولما تفيّأت مكانة مرموقة في سلّم المعرفة الغربي أصبحت قبلة لكثير من مثقفي هذه الأمة الذين انبهروا بنظريات الغرب الفلسفية حول الإنسان والمجتمع والثروة، فأصبحوا مترجمين ناصحين وناقلين لتلك العلوم إلى المجتمعات الإسلامية ومؤسساته التعليمية... وتلقّتها أبناء المسلمين فأحدثت ما أحدثت من فساد علمي ومعرفي قيمي هو أخطر من الفساد الأخلاقي والانحراف السلوكي.

لعلّ من أخطر ما يواجه المعرفة اليوم فقدانها البوصلة التي تحدد غاياتها وأهدافها، و انفراط محتواها واتجاه أجزائها إلى نحو من العزلة والاستقلالية عن بعضها بعضاً، ..، لنجد بعد فترة من الزمن أنّ المعرفة قد تقزّمت عند كلّ صاحب اختصاص، فلا نقطة ارتكاز تجمعها، ولا غاية توحدها. ويظهر ذلك حين يمارس المسلم نشاطه العلمي والمعرفي بعيداً عن معتقداته ومبادئ دينه الحنيف، فكيف يمكنه ممارسة معتقداته وشعائر دينه من خلال تفكير معرفي صحيح، وسلوك عملي مستقيم؟ وهل يمكن أن تسير أنواع المعارف والعلوم كل بمعزل عن الآخر؟ وهل يصح أن تبقى تلك المعارف والعلوم جزراً متقطعة الأوصال لا يجمع بينها جامع؟

وعلى صورة من الصور كان التكامل المعرفي قائماً في أذهان كثير من علماء الأمة، بل كان شيوعه ثقافة دارجةو أمراً مسلّماً، وقد كان تحقيقه وفق الرؤية الكلية للوجود ومفرداته ضرورة ترتقي بالباحث إلى وصف "عالم". وبنظرة سريعة إلى علوم الكون والإنسان والشريعة التي ألّف فيها الإمام الرازي (ت: ٦٠٦هـ)[١] مثلاً، سنجد موسوعة معرفية متكاملة أسهمت في بناء ثقافة الأمة.

لتلك الأسباب وغيرها، نجد في تناول هذا الموضوع إسهاماً في بناء تصوّر صحيح لمفهوم التكامل المعرفي في القرآن الكريم وأهميته وأثره في انسجام العلوم المتصلة بالإنسان والمجتمع والكون وتكاملها وقيامها على نقطة ارتكاز تمثل الوحي، وتتغيا بغاياته، وتدور حول محوره. والأسس التي قام عليها، والمجالات التي شملها، والمقاصد التي يتوخاها؛ ولذلك تأتي هذه الدراسة لتشمل المباحث الآتية:

المبحث الأول: في مفهوم التكامل المعرفي، وأهميته، وآثاره.

المبحث الثاني: في أسس التكامل المعر في.

المبحث الثالث: في مجالات التكامل المعرفي.

المبحث الرابع: في مقاصد التكامل المعرفي وغاياته.

الخاتمة: وتشتمل على نتائج البحث.

المبحث الأول
في مفهوم التكامل المعرفي وأهميته وآثاره

المطلب الأول: في مفهوم التكامل المعرفي:

"التكامل المعرفي" مركب وصفي يقتضي التعريف بشقّيه: "التكامل"، و"المعرفي"، أما التكامل فأصله من الفعل كَمُلَ، وتدور مادة هذا الفعل حول التمام والجمال، قال في مختار الصحاح: تكامل الشيء: كمل، والتكميل: الإكمال و الإتمام[٢] وقال في اللسان: تَكامَل الشيء وأَكْمَلْته أنا،وأَكْمَلْت الشيء، أي:أَجْمَلْتُه وأتممته،وأَكْمَلَه هو واستَكْمَلَه وكَمَّلَه:أَتَمَّه وجَمَّلَه"[٣]، فملاحظ في التكامل اعتبارات مادية ومعنوية مدركة في تمام الشيء وخلوّه عن كل نقص، وما ينطبع به ذلك الشيء من معاني الجمال والحسن ومواصفاته.

أما "المعرفة" فتعود في أصل اشتقاقها إلى الفعل الثلاثي عَرَفَ، والمعرفة كما في مفردات الراغب: إدراك الشيء بتفكّر وتدبّر لأثرهوهو أخصّ من العلم، ويضادّه: الإنكار...."[٤] وهو تعريف أقرب إلى إيحاءات آيات القرآن الكريم من التعريف القائل:" هي إدراك ما لصور الأشياء أو صفاتها أو سماتها وعلاماتها، أو للمعاني المجردة سواء أكان لها في غير الذهن وجود أم لا؟"[٥].

وفي ضوء ما تقدم، يتبيّن أنّ المعرفة التي هي عملية إدراك مستندة إلى تفكّر تستلزم أن يتحقّق مقصودها بأن تتكامل في تصوّر الفرد والأمة وفق رؤية كلية، وأن يظهر ما لها من أبعاد عملية وجمالية تزيّن تلك العملية الفكرية في نشاطها الحيوي الطبيعي، ولا يتمّ لها ذلك إلا إذا قامت على الوحي الموصوف بالكمال، وانطلقت منه في اكتشاف نواميس الكون وقوانينه وسننه؛ بوصفه المصدر الرئيس للعلم والمعرفة، وأنّه فوق إمكانات البشر وقدراتهم، وبعيد عن ميولهم وأهوائهم.وإذا كان ذلك كذلك، فإنّ التكامل المعرفي، يعني:الإدراك التامّ الواعي للحقائق المتصلة بالوجود الإلهي والكوني والإنساني، وما ينتظم به من سنن، وما ينشأ عنه من علوم ومعارف، تظهر به الآثار العملية والجمالية للمعرفة في ربطها أجزاء ذلك الوجود وانتظام علاقاته وفق هداية الوحي.

وينعكس هذا المفهوم على واقع المعرفة حين يحدّد خط سيرها، ويقرر أن لا معرفة مثمرة يمكن أن تنشأ أو تقوم دون أن تستند إلى الحقيقة المطلقة المتمثلة في وجود الله تعالى التي تشكل المرجعية الكلية لها. وكل حقيقة تكتشفها المعرفة أو تنتجها لا قيمة لها إن لم تتصل بهذه الحقيقة المهيمنة ويتضح من التعريف أنّ الإدراك الواعي لتلك الحقائق المتصلة بالوجود وفق ما أسسته الهداية القرآنية هو الضمان لعملية ناجحة من التكامل الهادف إلى إعادة بناء العلوم وفق تلك الهداية.

وخلص بعض الباحثين إلى أنّ التكامل المعرفي هو تكامل مصادر المعرفة وهما: الوحي والوجود، وتكامل أدوات المعرفة وهما: العقل والحس، وتكامل مصادر المعرفة وأدواتها. وعليه، فاستمداد المعرفة من الوحي يتطلب عمل كل من العقل والحس معاً، واستمداد المعرفة من الوجود يتطلب عمل كل من العقل والحس معاً(٦) لكن يتميز الوحي بوصفه مصدراً للعلم والمعرفة بالهيمنة والمرجعية.

ويجري هذا التكامل في مظاهر كثيرة، منها على سبيل المثال تشارك العلوم في دراستها للإنسان والكون والحياة وفق الهداية القرآنية. وتشارك أصحاب الاختصاص في بناء علم ما وفق الهداية القرآنية... ولا يقصد بالتكامل أن يقوم عالم ما بإنشاء علم متكامل بمفرده في وقت تسير فيه المعارف والعلوم إلى تخصصات بالغة الدّقة.

المطلب الثاني: في أهمية التكامل المعرفي:

إنّ الخلل في نظام المعرفة الإنسانية الذي انطلق إلى بناء علوم وفق رؤى قاصرة قد ولّد مشكلات خطيرة من أبرزها تمزيق وحدة كيان الإنسان، وتجهيل علاقته بالكون، والوقوف بهذه العلاقة عند حدود المعرفة المادية التجزيئية دون التوصل إلى معارف كلية جامعة كمعرفة خالق الوجود، قال تعالى: **﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾** [الروم: ٧-٨] فأيّ علم لا يؤدّي إلى تفكّر في حقائق النفس والكون وانسجامها والوقوف على غاية الخلق هو علم ظاهر غير متكامل مع تلك الحقائق.

إنّ المشكلة التي تواجه الانشطار المعرفي المتعلق بعلوم الكون والإنسان تتمثل في التشتت السلبي الذي ينعكس على الإنسان في رؤيته للكون وقدرته على ربط غاياتتلك العلوم و أهدافها بتلك الرؤية، وهذا يجعل من قضية التكامل ضرورة من ضرورات العلم ومقتضياته المنهجية؛ ليكون هذا التكامل سبيلاً إلى فهم حقيقة الإنسان والكون والحياة، وأساساً مهماً لتوحيد المعرفة، وتلافياً لما قد يُعرف بـ "أمية المعرفة وجهالتها".

وإذا كان إدراك الحقائق الكلية في الوجود يمثل نقطة الانطلاق، فإنّ سير الإنسان في الأرض باحثاً ومكتشفاً ومتفكراً يعدّ ضرورة لعملية التكامل لتحقيق التطابق بين الحقائق المدركة من نصوص الوحي التي تمثل المنطلقات، وبين نتائج السير في الأرض من معارف وعلوم التي تمثل المكتشفات. وبعبارة أخرى:

تحقيق التكامل في قراءة الكتابين، كتاب الوحي وكتاب الكون. قراءة الكون بمعزل عن قراءة الوحي يؤدي إلى التشتت المعرفي، ولا يحقق مقاصد عملية التكامل و لا ينبغي أن تتوقف هذه القراءة عند الظاهر فحسب، بل تتجاوزه لتصل بين الإيمان بالله وكل نشاط معرفي يحققه الإنسان.

ويعد التكامل –أيضاً ضرورة من ضرورات الإعمار الآمن والمثمر للكونوالحياة، لما أنّ الإنسان هو المستخلف فيه، وهو الذي عهد إليه بإعماره، قال تعالى: ﴿وَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١] ولا يتحقق هذا الإعمار بدون فهم حقيقة الكون وغاية الإنسان فيه؛ فإعماره ليس قاصراً على الشعائر التعبدية، أو ما يشمل مظاهر العبادة المعنوية، وليس قاصراً على مظاهر الإعمار المادي.إنّ الإعمار عملية شاملة لكل ما ييسر سبل الحياة الإنسانية على الصعيدين: المادي والمعنوي، وهو جانب من معاني العبادة.وإذا كان ذلك كذلك، فلا بدّ من تحقيق التناغم والانسجام بين الكون والإنسان، فالإنسان يأخذ من الكون، والكون يعطي الإنسان كل ما يريد في ضوء مبدأ التسخير الذي انتظم به. والإنسان يتعامل مع الكون بكل رفق ممكن دون أن يسيء إليه بشيء يفسده أو يدمّره؛ لتستقيم حياته فيه.

ويعدّ التكامل المعرفي –كذلك ضرورة لتحقيق مهامّ الإنسان الكبرى في الحياة، ولا يتمّ تحقيق هذه المهام إلا بالوقوف على الحقائق الكبرى فيها، تلك الحقائق التي استقر عليها نظام الكون والحياة والإنسان، وبني عليها نظام العالم. فالجهل بها يؤدي إلى الجهل بطبيعة وظيفة الإنسان ومن ثمّ انصرافه عن تلك المهام، واشتغاله بمهام أخرى لا تحقق غايات وجوده في الحياة. والواقع اليوم يشهد انحراف مسيرة حياة الإنسان العلمية والمعرفية بعيداً عن تلك الغايات، فتراه ينتج أعقد المعادلات الكيميائية والرياضية والفيزيائية ويسخرها في صنع أفتك أسلحة الدمار الشامل، وهو في الوقت نفسه يجهل سرّ حياته، وغاية وجوده.

وتظهر أهميته في وصله بين حقائق الوجود الكبرى والغايات العظمى للإنسان وبين كل نشاط علمي أو معرفي أو اجتماعي أو اقتصادي يقوم به في الحياة، بل لكل ما ينتجه الإنسان من علوم ومعارف طبيعية وإنسانية واجتماعية وتطبيقية، وما ينتج عن هذا الوصل من آثار عملية، أو التزامات سلوكية.

المطلب الثالث: في آثار التكامل المعرفي:

لا شكّ في أنّ آثار التكامل تظهر من خلال النظر في السلبيات التي تنجم عن التشتت المعرفي الذي تتجلى مظاهره في كلّ صعيد، فالعلم يسير بلا أخلاق، والسلوك ينشأ بلا دين، ... وتُترك المجال واسعاً للعلم كي يبطل مقولات الدين الذي جاءت به الكنيسة ويعزلها عن واقع الحياة ومجرياتها، واتسعت الفجوة بينه وبينها، وانتقلت هذه المعركة المزعومة إلى واقع المجتمعات الإسلامية، وأخذت تثار مشكلات العلم والدين والعلاقة بينهما ومدى تعارضهما... أو توافقهما، قضايا ما ثارت ولم تكن لتثور لولا جهود المتفرنجين من أبناء هذه الأمة! فانتقلت عدوى الصراع بين العلم والدين، وتكرسّت بعض أزمات الغرب في مناهج التعليم في العالم الإسلامي وتجسدت فلسفة إقصاء الدين أو تحجيمه في مناهج التعليم ؟

ولربما غاب عن أذهان الموجهين للعملية التعليمية أنّ الحقيقة التي ينبغي لها أن تتربع على عرش العلم والمعرفة هي أنّ العقل الإنساني متجه إلى البحث في واحد من مجالين لا ثالث لهما، وكلاهما واقع في عالم الشهادة:

الأول: هو مجال الكون بكل ما فيه من مظاهر الوجود.

الثاني: هو مجال الإنسان وكل ما اتصل به من حقائق.

والإنسان والكون هما من خلق الله تعالى وفعله، فكيف نتعامل معهما بحثاً ودراسة؟ وكيف يمكن أن تصحّ نتائج الدراسة والبحث في غياب كتاب الوحي الذي فسّر حقيقة الكون والإنسان أحسن تفسير!إنّ التكامل مبدأ تنضبط به حياة الإنسان وتستقيم علومه ومعارفه، وهو الذي يعطي الحياة معناها الحقيقي؛ لأنّ معنى الحياة يقتضي – كما قال علماؤنا- تكاملاًفي ذاتٍ ما، وأدنى

هذا التكامل يتمثل في حياة النبات من انغراسها إلى نموها واهتزازها، ثم إلى حياة ما يدبّ بحركته وحسّه، إلى غاية حياة الإنسان في تصرفه وتصريفه، إلى ما وراء ذلك من التكامل في علومه وأخلاقه[٧]فكأنّ كلّ مخلوق حيّ يمثل –في ذاته– مظهراً حقيقياً للتكامل على أساس الترابط الحميم بين أجزاء الوجود الكوني والإنساني، وكيف يمكن أن نتصور تكاملاً في حياة الإنسان بناءً على أنّ الإنسان كتلة مادية تبحث وتسعى إلى إشباع رغبات النفس على هذا الصعيد؟ وكيف يمكن أن يتحقق هذا التكامل في ضوء هذه النظرة الفلسفية المادية إلى الإنسان وطبيعته التكاملية؟

إنّ أبرز أثر للتكامل المعرفي على الصعيد المنهجي أنّه يوحّد منهج قراءة الكون والإنسان في ضوء هداية الوحي، وبذلك يحقّق التكامل المعرفي مبدأ الجمع بين القراءتين: قراءة كتاب الوحي وقراءة كتاب الخلق، وبذلك تكون عملية التكامل قد وقفت على ساقين، واستندت إلى ركن شديد.

وقد حذّر القرآن الكريم – في هذا السياق– من القراءة التشتيتية التي تفقد النصّ قيمته وأثره وفاعليته في حياة الإنسان، فالمشركون وافقوا بعضه وخالفوا بعضه، فلم ينتفعوا منه بشيء، لأنّ مقاصدهم لم تكن متجهة نحو الاقتداء به والالتزام بهديه، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٠ ٩٣]ومما قيل في "العضين" أنها الأشتات المتفرقة، قال الرازي: والتعضية: التجزئة والتفريق[٨]، وقال الكسائي: العضة: الكذب والبهتان، وجمعها عضون، مثل:عزّة وعزون. ويقال: عضوه، أيّ: آمنوا بما أحبوا منه، وكفروا بالباقي فأحبط كفرهم إيمانهم[٩] قال أبو السعود:والتعبيرُ عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريقُ الأعضاء من ذي الروح المستلزمُ لإزالة حياته وإبطالِ اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذَيْن ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيضُ من المثليات، للتنصيص على كمال قبحِ ما فعلوه بالقرآن العظيم"[١٠] ومن صور التعضية اليوم قبول تشريعات القرآن في الصلاة والصيام والحج وأحاديث في الوضوء والطهارة ... وعدم الاهتداء به في مجال التعامل مع الكون، أو بوصفه مصدراً موجهاً للعلوم والمعارف، أو منظماً لعمل المال وطرق استثماره، أو مهيمناً على مناهج التعليم الجامعية.وهذا يعني أنّ جعل القرآن عضين من شأنه أن يفقد عملية التكامل المعرفي بوصلتها واتجاهها، ويجعل الأمل في تصحيح مسار التربية والتعليم بعيداً، بل يجعل من نهضة الأمة واستعادتها لموقع الصدارة أمراً صعب المنال.إنّ منهج التعضية هو المنهج التجزيئي الذي لا يجعل في حسبانه ترابط حقائق الوجود الكوني واتفاقها وانسجامها، وما لها من أثر وانعكاس على مسيرة الإنسان العلمية والمعرفية، ومن ثمّ الأخلاقية والسلوكية.

المبحث الثاني
في أسس التكامل المعرفي

لعلّ أصالة التكامل المعرفي بوصفه ضرورة معرفية تقوم أساساً وتستند إلى طبيعة الخطاب القرآني الذي اختصّ بالشمول والتكامل فيما يطرح من حقائق متصلة بمفردات الوجود يتكامل بعضها مع الآخر، فالحقائق المتصلة بالله الخالق تنعكس على النظام الكوني والعالمي إيجاباً، وتنعكس على الوجود الإنساني فتورثه الطمأنينة والاستقرار، وتحفّزه على أن يكون فاعلاً في هذا العالم.بل إنّ بين العالم والإنسان تشابهاً كبيراً عبر عنه الأصفهاني بقوله: "ولكون العالم والإنسان متشابهين إذا اعتُبرا –اختُبرا– قيل: الإنسان هو عالم صغير، والعالم إنسان كبير؛ ولذلك قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[لقمان: ٢٨]، فأشار بالنفس الواحدة إلى ذات العالم"[١١]. وما يترتب على هذه الحقيقة هو انسجام وجود الإنسان مع وجود العالم، وانسجام وجود العالم مع وجود الكون. كذلك،فإنّ جهل الإنسان بالحقائق المتعلقة بوجوده، أو المرتبطة بوجود العالم والكون يفقده القدرة على معرفة غاية هذا الوجود، ومن ثمّ

عدم القدرة على إحداث تفاعل حقيقي مع مفردات الوجود كله.

إنّ الخطاب القرآني قدتضمن جامعية خارقة في مقاصده ومسائله ومعانيه وأساليبه ولطائفه ومحاسنه، فالمتأمل في سور القرآن وآياته وفواتحه ومبادئ الآيات ومقاطعها يدرك أنّ القرآن المعجز البيان قد جمع أنواع البلاغة، وجميع أقسام فضائل الكلام، وجميع أصناف الأساليب العالية، وجميع أفراد محاسن الأخلاق، وجميع خلاصات العلوم الكونية، وجميع فهارس المعارف الإلهية، وجميع الدساتير النافعة للحياة البشرية الشخصية والاجتماعية، وجميع قوانين حكمة الكون(١٢). وهي جامعية تقوم عليها عملية التكامل المعرفي، فما تضمنه القرآن الكريم من حقائق شاملة يجعل من التشتت المعرفي أمراً نشازاً في الفكر، لما يحدثه من شلل في عملية التفكير نفسها يؤدّي إلى انفلات المعرفة من عقالها. ويورث الاضطراب في الحياة، ولولا هذا التكامل لظلّ الإنسان في كآبة وحزن كما هو حال المعرفة الغربية.

لقد اختصّ القرآن بخطاب العامة والخاصة بحيث يرى كل منهم الآية القرآنية غاية في الروعة والإعجاز، يراها مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم. واختص كذلك بإقناع العقل وإمتاع العاطفة، وهما قوتان: قوة تفكير وقوة وجدان، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته وعن الخير للعمل به. وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم والبيان التام هو الذي يوفي لك هاتين الحاجتين(١٣).

وهو خطاب اتصف بالإحاطة والشمول، قال ابن كثير: إنّ القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكلّ حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم"(١٤). وهو خطاب لم يغفل الحديث عن الذرة وهو يتحدث عن الفضاء الكوني، بل إنّ حديثه الشامل يتجلى بكل وضوح في آية واحدة من آياته، خذ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨] وتفكّر في حديثه عن نظام الكائنات كلها، ما من دابة على وجه الأرض إلا وترتبط بأمة لها نظام تسير عليه كما للإنسان نظام خاص يوجهه نحو سير آمن في الأرض، وكذلك الطير. دع علماء الحيوان يغوصون في مثل هذه الحقيقة، هل سيأتون بأبعد منها؟ وهل يتكامل في أذهانهم حكمة هذا النظام والانتظام في حياة الكائنات. هذا النظام السائد في حياة كل كائن ليس نظاماً فوضوياً، بل نظام منضبط له هدف وغاية، وله مصير محتوم يحشرون فيه إلى الله تعالى. وهذه حقيقة أخرى تتكامل مع الحقيقية الأولى وتتعاضد معها؛ لتشكل الانضباط في نظام حياة الإنسان على وجه الخصوص. فهذا النظام والانتظام في حياة الإنسان لا بدّ أن ينضبط بغاية تتمثل في مرضاة الله تعالى، والاهتداء بهداه. حقيقة دنيوية توثقت عراها بحقيقة أخروية؛ لتؤكد أنّ الخطاب القرآني يؤسس ويؤكد مبدأ التكامل في نظام الحياة.

هذا النظام في الخطاب الذي يجمع جملة حقائق في كل موضوع عرضه، وفي كل قصّة ذكرها، وكل سورة من سوره يعدّ الأساس الأهم، والقاعدة الصلبة لعملية التكامل المعرفي. وبناءً على ذلك فقد قامت عملية التكامل واستقامت على الأسس العلمية والمنهجية الآتية:

الأساس الأول: الإيمان بالله تعالى الواحد:

يعدّ الإيمان بالله تعالى القاعدة الأساس، والمنطلق الرئيس في توجيه عملية التكامل المعرفي وبنائه في واقع الحياة الإنسانية وإقامتها عليه؛ لوضع حدّ لانفلات المعرفة وتشتتها، ووضع حدّ لخرافة تناقض الدين والإيمان التي ازدهرت في بيئة الغرب وثقافته، وتضارب الغيب والشهادة في تصوّر أبنائه. فالله تعالى خالق الكون والحياة والإنسان هو نفسه سبحانه منزّل الكتاب؛ ليهتدي به الإنسان ويؤسس علومه في ضوئه، ولتتجلى

حقيقة أنّ كلّ معرفة تنشأ فهي معرفة توحيدية تشير بكليتها إلى أنّ الله تعالى هو الواحد."إنّ أهمية مبدأ التوحيد في الإسلام تتمثل في أنه يشكل إطاراً لفهم الحياة والكون، ويرسي مبادئ العلاقات الإنسانية والأسس التي ترتكز عليها، وإنّ أي إخلال بهذا المبدأ والمفهوم له آثاره الخطيرة في معنى الحياة الإسلامية، ونوعيتها والغاية منها"(١٥).

لكن، كيف يمكن جعل الإيمان أساساً في توجيه عملية التكامل؟لقد توضّحأنّ الإيمان بالله مصطلح علمي ثبت بأدلة يقينية من النقل والعقل والوجدان، وليس مجرد شعور عاطفي وإحساس قلبي، وقد استثمره القرآن الكريم في تأكيد حقيقة هي أهم من المعرفة المتصلة بعلوم الاقتصاد أو السياسة أو التاريخ أو ...، الطب والهندسة أو الفلك والفضاء، بل هي الأساس في ذلك كله، إنّها صيانة كرامة الإنسان والاعتراف بطبيعته وحاجته إلى توثيق صلته بربه وخالقه سبحانه.إنّ القرآن الكريم لم يخبر الإنسان ماذا يصنع، وماذا يبني من حضارة ويشيد من بنيان، ولكن أخبره أن يستقيم على هداية القرآن الكريم، وسنّة النبيّ الخاتم ﷺ، فإذا حقّق الإنسان ذلك أصبح إعماره للكون إعماراً آمناً، ويصبح كلّ اكتشاف علمي أو معرفي يجذبه إلى التسبيح بحمد الله وتعظيمه. وتبقى –بعد ذلك علومه ومعارفه وتجاربه مشدودة إلى هذا البؤرة الإيمانية.

ولنذكر مثالين من نصوص الوحي ونبين دلالاتهما على كون الإيمان أساساً موجهاً لدراسة مظاهر هذا الوجود واكتشاف سننه ونواميسه في علوم منضبطة، وأنّ الكفر منطلق فاسد في النظر في ملكوت الله تعالى، فهذا الملكوت يدل بوضوح على وحدانية الله الخالق، فالابتعاد به عن بؤرة الإيمان من شأنه أن يفسد نظام حياة الإنسان، ويشتت مساره فيها، ويجعله عديم المقصد والغاية، بل قد يُنشئ كفراً وإلحاداً. المثال الأول : قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ٣٠ ٣٢]، فالآية تصدرت بالاستفهام الإنكاري، وتعبيرها بـ "الذين كفروا" يؤكد أنّ الكفر معوّق وحجاب يحول دون رؤية دلائل الوحدانية، وهو منطلق فاسد في النظر إلى ملكوت الله سبحانه؛ لأنّه سيعجز عن تفسير هذا الوجود، ويحول دون رؤية صحيحة للكون والحياة والإنسانوإنّ العلوم التي تنشأ في ظلّ هذا تصوّر الكفر ستكون هي الأخرى عاجزة عن تحقيق تكامل المعرفة، خاصة تلك التي تدور حول الإنسان نفسه، أيّ: العلوم الإنسانية والاجتماعية. وهذا يعني أنّ دراسة أيّ ظاهرة كونية من سماء وأرض وماء وجبال وفجاج وبحار وأنهار ... ينبغي أن تتمّ في ضوء الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

والمثال الثاني: حين يعرض القرآن من صفحات كتاب هذا الكون ما يدعو إلى التأمل والنظر وإنشاء العلوم والمعارف، فإنّه يؤكد ارتباط ذلك كلّه بحقيقة الإيمان بالله الواحد، وأنّ العلوم والمعارف التي تنشأ من خلال النظر فيها هي علوم توحّد الله وتسبح بحمده، قال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام: ٩٦ ٩٩]، فالعلوم التي تبحث في الشمس ومكوناتها وطبيعتها وطاقتها وما لها من ارتباط في العبادات كالصلاة والصيام.. أو العلوم التي تبحث في القمر وأحواله وما له من ارتباط في كثير من العبادات كالصيام والحج والزكاة، والليل

وحِكمه وفوائده، والنجوم وما لها من معان ودلالات، هي معارف علمية إيمانية. وكذلك ما في عالم الأرض، فالإنسان –محور هذه المخلوقات- كيف نشأ من نفس واحدة! وكذلك، إنزال الماء من السماء وما له من أثر وقيمة في حياة المخلوقات، والنخل والأعناب والزيتون والرمّان آية من آيات الله في الأرض. ولو تساءلنا عن العلوم التي تستدعيها هذه الموضوعات، لتأكد للعاقل المتأمل أنّ معرفة هذه المخلوقات تستدعي بنظرة سريعة علوماً ثلاثة، هي: علم الفضاء، والإنسان، والنبات أو الزراعة، وقد أحدثت الآيات تكاملاً علمياً ومعرفياً عجيباً بين السماء والأرض والإنسان، وتوسّط الحديث عن الإنسان بين مخلوقات السماء ومخلوقات الأرض؛ لأنّه المركز والمحور والأساس، وليفهم ويدرك حقيقة التكامل مع أجزاء الوجود الأخرى، هو يعطيها التفسير الصحيح الذي يليق بها، ويوظّفها التوظيف المناسب من حيث دلالتها على الوحدانية، وهي تعطيه من فوائدها وخيراتها في ضوء سنن التسخير ما تستقيم به حياته، في عملية معرفية متكاملة مسبحة بحمد الله رب العالمين.

الأساس الثاني: أسماء الله الحسنى:

تعدّ أسماء الله الحسنى أساساً مهماً من أسس توجيه عملية التكامل المعرفي بالنظر إلى حظّ الإنسان فيها، من حيث حسن الفهم والحفظ والاقتداء والاتباع، ومن حيث تنوع هذه الأسماء وشمولها وكمالها وحسنها وجمالها، ومن حيث تجلي هذه الأسماء وانعكاس آثارها على الموجودات كلّها. وقد بين العلماء أمثال الغزالي والرازي والقرطبي والنورسي دلالة أسماء الله الحسنى، وما لها من انعكاس وتجلٍّ لآثارها في الوجود الكوني والإنساني.

وهذه الأسماء توحي بدلالاتها ومقتضياتها إلى ضرورة أن يسود المعرفة مبدأ التكامل والتعاضد في مجالاتها كلها: الطبيعية والتطبيقية والإنسانية والاجتماعية. ولتوضيح ذلك نتساءل:

ماذا يوحي إلى فهم العبد قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[الحديد: ١ - ٣]؟ لا شكّ في ضرورة الإقرار بوحدانية الله سبحانه الذي له الأسماء الحسنى والصفات العُلى لكن ما حظّ العبد من صفة العزّة؟ وصفة الحكمة؟ وصفة العلم؟ وكيف تؤثر هذه الصفات فيه؟ وكيف تنعكس على علمه ومعرفته فضلاً عن معتقده وتصوّره وأخلاقه وسلوكه؟ لقد ذكر الغزالي أنّ حظّ العلماء من هذه الأسماء: معرفتها لتصبح حقائق قائمة على البرهان؛ ليجري في نفوسهم اتصاف الله عز وجل بها مجرى اليقين الحاصل للإنسان.وأن يتشوّقوا إلى الاتصاف بها ما كان ذلك ممكناً. ثمّ السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلّق بها، والتحلّي بمحاسنها وبه يصير العبد ربانياً(١٦).

لكن، ثمّة شيء آخر في هذه الأسماء، وهو اتصالها بمعارف الإنسان وعلومه، أليس الله العليم هو الذي خلق الإنسان؟ أليس الله الحكيم هو الذي وضع فيه مؤهلات الحياة؟ ألا يتجلى اسمه الحكيم سبحانه في اختلاف ألسنة الناس وألوانهم وأجناسهم وأعراقهم؟ أليس في جعلهم أمماً وشعوباً فيه من الحكم والأسرار ما لا يعلم به إلا الله تصديقاً لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣]؟ فماذا يقول علماء الإنسانيات والاجتماعيات في جعل الناس شعوباً وقبائل؟ وكيف يفهمون حكمة الله تعالى واسمه تعالى العليم واسمه الخبير؟ وكيف ينعكس ذلك على معارفهم وعلومهم؟ ألا تتجلى هذه الأسماء الحسنى في تلك العلوم؟

وماذا يقول علماء الأجنة من الأطباء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾[الرعد: ٨ - ٩] وكيف يفهمون تلك الأسماء الحسنى: عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال؟ ألا تتجلى

عظمة الله في نفوسهم؟ ثم في علومهم؟ وكيف تتجلى آثار هذه الأسماء في كتاب الخلق الذي هو موضوع دراسة ونظر وتفكّر من قبل الإنسان؟

إنّ اسمه تعالى "الحكيم"يوحي بأنّ الحكمة تتجلى ويظهر أثرها في أرجاء الوجود كله، ابتداء بالذرّة أو ما هو أصغر منها وانتهاء بالمجرّة أو ما هو أكبر منها، ويتجلى أثرها في الإنسان بأوضح صورة من حيث خلقه وغاية وجوده، ومن حيث تكامله مع بني جنسه، من حيث إنّ له لساناً وشفتين، ومن حيث إنّ له سمعاً وبصراً، ومن حيث مراحل حياته. من حيث التراب الذي خلق منه وما اشتمل عليه من عناصر، ومن حيث ما وضع في هذه العناصر من خصائص يتفاعل بعضها مع بعض، ولا يتفاعل بعضها الآخر مع بعض لحكمة أرادها الخالق الحكيم سبحانه.

إنّ صفة الحكمة تتجلى للكيميائي والفيزيائي وعالم الأحياء والزراعة والطبيب في مختبراتهم وبحوثهم، فاسمه تعالى الحكيم يجلب الباحثين في كل دوائر الاختصاص المعرفي والعلمي إلى فهم حكمة الخالق سبحانه، بعد الإيمان به والتسليم بأنّه الواحد الأحد الفرد الصمد. وكيف يمكن بعد هذا أن تنشأ علوم إنسانية واجتماعية وطبيعية يتنافر بعضها مع بعض، أو تتنافر مع هداية القرآن الكريم الذي فسّر مظاهر هذا الوجود تفسيراً حقيقياً؟ فكيف تبني هذه العلوم نفسها على أوهام وظنون، أو على مزاعم وافتراضات بشأن الإنسان وآماله وغاياته؟

الأساس الثالث: الخلافة في الأرض:

قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤] وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[النمل: ٦٢] استخلف الله الإنسان لتحقيق مهام تتناسب وغاية خلقه وتكريمه كأداء الأمانة، والعبادة، والشهادة على الأمم، وعمارة الأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١] فكيف تكون الخلافة في الأرض أساساً منهجياً في توجيه عملية التكامل؟

إنّ الخلافة تقتضي أن يقف الإنسان في مكانه الصحيح في الأرض، فهو أفضل مخلوق فيها. وتقتضي منه أن لا يخدع نفسه، ولا أن يعمل وفق هواه، فهو مرتبط بمهمة ناظمة لكل نشاطاته العلمية، والمعرفية، والاجتماعية، والاقتصادية ... في الحياة، لا يصح منه تجاهلها أو الانفلات منها، ولذلك كان معنيّاً بتحقيق هذه المهمة في ضوء قيم الوحي الحاكمة لعلاقاته بكل ما حوله ومن حوله.وإذا كان الإنسان الغربي يؤلّه العلم ويجعل منه غاية، فإنّ الإنسان المسلم يعدّ العلم وسيلة إلى معرفة الله سبحانه، وطريقاً للنجاة من البؤس والشقاء في الحياتين، فواجب الخلافة يقتضي إيجاد علوم ومعارف نافعة مفيدة في ضوء هداية الوحي.

وقد ورد في الخطاب القرآني مصطلحات تتعلق بنظام هذا الكون وما فيه، والإنسان المكلف جدير بأن يتنبّه إلى هذه المصطلحات في ضوء مهمّة الخلافة. وقد وردت هذه المصطلحات لتؤسس لعلوم مفيدة، أو لأنّها تستدعي علوماً لفهمها والتعاطي معها، وتوظيف نتائجها في مصلحة الإنسانية. ومن تلك المصطلحات: الصيّب من السماء، السحاب، الرعد، البرق،، البرد، الصواعق، الودق، السراب، الفلك، التكوير، البحر اللجيّ، ظلمات البحر، التصعّد في السماء، تعاقب الليل النهار، ...، وهذا يؤسس لمعارف متكاملة؟

فما العلم الذي يستدعيه السير في الأرض لمعرفة كيف بدأ الله الخلق؟وما العلم الذي يستدعيه السير في الأرض لقصد معرفة ما حلّ بالأمم السابقة. وما العلوم التي يستدعيها قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[الأنعام: ٣٨]؟ من هنا يتأكد أنّ لكل صاحب اختصاص من أصحاب العلوم والمعارف أن ينظر في القرآن من زاوية اختصاصه

ليحقق التكامل في ذلك الاختصاص في ضوء معطيات الوحي وهداياته وفق رؤية الوحي للكون أو للعالم.

لقد خوطب الإنسان الخليفة في الأرض بتلك المصطلحات؛ ليسير في فهمها على هدى ونور. هذا على صعيد المعارف الكونية والطبيعية.

أما على صعيد المعارف الإنسانية والاجتماعية فقد وردت مصطلحات أخرى، وهي إما أن تؤسس لعلوم أو تقيم تصورات لها، أو تشير إلى أهميتها وارتباطها بحياة الإنسان، ومن ذلك مثلاً: مصطلح الشورى، والحكم، والعدل، والعفو، والصفح، والإحسان، والبرّ، والإيثار، والأخوّة،... التي تأخذ مكانتها اللائقة في علم السياسة والأخلاق وفنّ التعامل مع الناس؟ وكذلك مصطلح الزكاة والإنفاق، والاقتصاد، والمال، والذهب، والفضة ... من علوم الاقتصاد وإدارة المال؟

وحديث القرآن عن سقوط الأمم ونشوئها يرتبط بعلم الاجتماع، وكيف يقرأ عالم الاجتماع قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣] ثم لا يعرف شيئاً عن بدء حياة الإنسان؟ قال الأستاذ الإمام محمد عبده: لَا أَعْقِلُ كَيْفَ يُمْكِنُ لِأَحَدٍ أَنْ يُفَسِّرَ هَذِهِ الْآيَةَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ أَحْوَالَ الْبَشَرِ، وَكَيْفَ اتَّحَدُوا، وَكَيْفَ تَفَرَّقُوا؟ وَمَا مَعْنَى تِلْكَ الْوَحْدَةِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ وَهَلْ كَانَتْ نَافِعَةً أَمْ ضَارَّةً؟ وَمَاذَا كَانَ مِنْ آثَارِ بَعْثَةِ النَّبِيِّينَ فِيهِمْ؟ أَهْمَلَ الْقُرْآنُ الْكَلَامَ عَنِ الْأُمَمِ، وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ، وَعَنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي الْآفَاقِ وَالْأَنْفُسِ، وَهُوَ إِجْمَالٌ صَادِرٌ عَمَّنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَمَرَنَا بِالنَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَالسَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِنَفْهَمَ إِجْمَالَهُ بِالتَّفْصِيلِ الَّذِي يَزِيدُنَا ارْتِقَاءً وَكَمَالًا، وَلَوِ اكْتَفَيْنَا مِنْ عِلْمِ الْكَوْنِ بِنَظْرَةٍ فِي ظَاهِرِهِ، لَكُنَّا كَمَنْ يَعْتَبِرُ الْكِتَابَ بِلَوْنِ جِلْدِهِ لَا بِمَا حَوَاهُ مِنْ عِلْمٍ وَحِكْمَةٍ(١٧).

ولذلك سبق تنبيه العلماء على اشتمال القرآن الكريم على إشارات إلى مختلف أنواع العلوم، فقد قال الغزالي رحمه الله: "وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها وفي القرآن إشارة إلى مجامعها. والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهره التفسير لا يشير إلى ذلك. بل كل ما أشكل فيه على النظّار، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن رموز إليه ودلالات عليه يختصّ أهل الفهم بدركها"(١٨).

وقال السيوطي رحمه الله: "قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء، أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها"(١٩). ولا شكّ في أنّ الغزالي والسيوطي وغيرهما من العلماء يقصدون الدلالات الإجمالية، أو الإشارات الجامعة إلى تلك العلوم، أو ما تتمّ به واجبات الخلافة ومهامّ الإنسان في الأرض.

الأساس الرابع: الطبيعة الإنسانية تقتضي التكامل:

الإنسان مخلوق عجيب في طبيعته وطبائعه ومادة خلقه، فريد في قواه التي أودعها الله تعالى فيه، وهي طبيعة متكاملة، فكل أعضائه وخلايا جسمه متكاملة متعاضدة متعاونة، وتبرز عملية التكامل في أدنى أذى يصيب الإنسان، قال ﷺ: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"(٢٠) تداعى له بتعاون وتكامل كلّ خلية في جسمه من أجل دفع كلّ أذى يصيبه. وكلّ عضو فيه يتكامل مع الآخر، ويقوم بوظيفة تحقق فاعليته في الحياة. بل إنّ التكامل بين مكوّنات الإنسان من روح وجسد، وعقل ووجدان هو أساس التوازن وتحقيق الترقي في الكمالات الإنسانية.

وهو يتكامل مع النظام الكوني وما فيه من شمس وقمر ونجوم وبحار، فهي مسخرة له يفيد منها، ويوظّفها في إدخال الراحة إلى نفسه، وتذليل مصاعب الحياة وعنائها، هو يأخذ منها كلّ هذا، وهي تعطيه مسالك متعدّدة للهداية يهتدي بها إلى معرفة الله تعالى ووحدانيته

في ظلّ حياة آمنة مطمئنة، ولتكون حياته كلها متجهة وقاصدة توحيد الله ربّ العالمين، وتحقيق العبودية له سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ١٦٢].

وهو كذلك يتكامل مع الأرض التي يعيش عليها ويتفاعل معها فيعطيها من جهد وعمل وفلاحة وتعطيه من آلاء الله تعالى ما يعجز عنه الوصف، يعطيها عمراناً وتعطيه خيراً وجمالاً. ويتكامل مع المرأة التي يشكل معها خلية اجتماعية فاعلة.

ويتكامل مع الناس من حوله على اختلاف أديانهم وأجناسهم وألوانهم على مبدأ التعاون والتراحم والتكافل؛ لأنّه مدني بالطبع، ولأنّ الإنسان في الرؤية القرآنية الكونية كل واحد متعدد الجوانب والانتماءات، وذلك هو الإنسان قرآنياً: وحدة في تنوع, وتنوع في وحدة، لا تفاضل إلا في مدارج تحقيق الذات الإنسانية السوية التي هي أصل الفطرة وغاية وجودها ومناط مسؤولياتها واستخلافها في هذه الحياة"(٢١).

والناس يخدم بعضهم بعضاً بدافع التكامل في الحياة، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزخرف: ٣٢]، فالتكامل في حياة الناس سنة ونظام، قال الأصفهاني: والإنسان الواحد لا توصّل له إلى إعداد جميع ما يحتاج إليه؛ ليعيش به العيشة الحميدة، فلم يكن بدّ للناس من تشارك وتعاون، فجعل الله لكل قوم صنعة وهيأة مفارقة للصنعة الأخرى وهيئتها، ليقسّموا الصناعات بينهم"(٢٢). فتتحقّق عملية التكامل بينهم.

فإذا كان التكامل على هذا النحو، وأنّه قانون تنتظم به حياة الناس، فإنّ المعارف الناتجة عن البحث في الكون أو الإنسان أو المجتمع ينبغي أن تنتظم في القانون نفسه، وأن تتعاضد حقائقها وغاياتها وفلسفاتها بعضها مع بعض؛ لينتج عن ذلك فهم حقيقة الإنسان والكون والحياة، وتفسير ظاهرات الوجود تفسيراً صحيحاً يتوافق مع تفسير القرآن الكريم له، لتنسجم وتتناغم حياة الإنسان مع تلك الحقائق، فتورث سعادة حقيقية في حياته.

ومن المظاهر اللطيفة الدالة على التكامل في هذا الدين أنّ فروض الكفاية تؤكد تكامل أفراد المجتمع المسلم مع بعضه بعضاً، ففروض الكفاية التي إن قام بها بعض سقطت عن الكلّ تؤكد تكامل هذا المجتمع في أداء ما أوجب الله تعالى عليه، فالجهاد في الأصل فرض كفاية، وصلاة الجنازة فرض كفاية تسقط عن أفراد المجتمع كله إن أدّاها بعضهم. فتحقيق الإنسان لمظاهر التكامل هو تحقيق لطبيعة الإنسان وتحقيق ذاته.

الأساس الخامس: السنن الإلهية:

لا شكّ في أنّ هذا الوجود تحكمه قوانين إلهية منضبطة لا تتخلّف ولا تتبدّل، وهي من الكثرة والتنوع والترابط والتعاضد بحيث تظهر تكاملاً حقيقياً يتحرّك هذا الوجود كله من خلاله. بعض هذه السنن متعلق بالكون ونظامه، والكواكب ودورانها، وتعاقب الليل والنهار، ...، مما لا يملك الإنسان إزاءه شيئاً من تحكم أو تصرّف. وبعض هذه السنن متعلق بحركة الفرد وحركة المجتمع، ومتعلق بعمل الإنسان وفعله إيماناً أو كفراً، استقامة على أمر الله أو عصياناً وكفراً، حسناً أو قبحاً، إعماراً للأرض أو إتلافاً لها وتدميراً لخيراتها ومر افقها ... مما يكون للإنسان فيه حرية اختيار .إنّ فعل الإنسان وعمله في الأرض يخضع لقوانين وسنن، وتتحقّق تلك السنن بناء على موقف الإنسان من وحي الله وهدايته وتشريعه. فارتباط السنن الكونية والإنسانية والاجتماعية بالإنسان يؤكد عملية التكامل المعرفي والعلمي فيالحياة، وأنّ فهم تلك السنن خاضع لتوجيه الوحي، وأنّ اكتشاف هذه السنن والقوانين في الحياة يحقّق تكاملاً معرفياً في كل ميدان من ميادين الحياة الإنسانية.

إنّ اكتشاف أسرار النفس الإنسانية من حبّ وبغض، وسرور وحزن، وضحك وبكاء، ويسر وعسر، وسعة وضيق، وانشراح وانقباض، وبشاشة وعبوس، ورجاء وخوف، وطمأنينة وأرق، وسكينة وقلق، وأمل ويأس ...،

كل ذلك مرتبط بسنن الله تعالى المتصلة بحياة الإنسان، والعامل الرئيس فيها هو الإيمان الذي يعدّ أحد السنن التي تحكم حياة الإنسان، فالإنسان يملك أن يؤمن فيسعد، ويملك أن يكفر فيذلّ ويطغى. فكيف يمكن بناء علم النفس بعيداً عن الإيمان أو بمعزل عنه؟ وهل يمكن فهم طبيعة النفس الإنسانية بدون فهم ارتباط ذلك بإيمان الإنسان أو كفره؟ أو بمعتقده وتصوّره؟

إنّ الأمم والمجتمعات التي تسعى إلى التقدم والرقيّ، وتسعى إلى أن تظلّ في رفاهية دائمة ونعيم مستمر، فهل تحقّق هذا لأمّة من الأمم وهي لا تؤمن بالله؟ وكم من أمة بادت وأصبحت خبراً بعد عين! وكم من حضارة نشأت ثم بليت وفنيت فتلك آثارهم شاهدة عليهم! ما سبب ذلك، وماذا يقول علم الاجتماع الإنساني في تلك القرون الماضية والأمم البائدة؟ وكيف يفسّر هلاكها؟ وكذا علم التاريخ، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٣-٤٤] لقد أنكر القرآن على الإنسان جهله وغفلته عن نظام هذا الكون وسننه، وجهله بذلك الترابط بين السنة الكونية والسنة الاجتماعية. فخروج الإنسان عن سنن الإيمان والفضيلة يستدعي سنن الطبيعة لتخرج عن طبيعتها مؤذنة بعذاب أليم!

وكيف يمكن لعلوم الاجتماع أن تحقّق السعادة والرفاهية للإنسان وهي تقصي سنة الإيمان بعيداً عن حركة حياة الفرد والمجتمع؟ وتهمل معتقد الإنسان وتصوّره ورؤيته للكون والحياة والإنسان؟ ألا يصبح علم الاجتماع علماً عاجزاً عن أن يوقف انهيار الأمم والحضارات، بل انهيار الفرد خلقياً وروحياً؟ فما أثر هذا العلم وما قيمة تدريسه للأجيال وهو بهذه الصفة؟ أليس وصف هذه العلوم -الإنسانية والاجتماعية- بالعجز والنقص مناسباً من حيث عدم قدرتها على تحقيق الأمن النفسي للإنسان؟ قال صاحب المنار: إنّ كتاب الإسلام أوّل مرشد إلى سنن الاجتماع والعمران، ولكنّ المسلمين قصّروا في حياتهم العلمية عن تفصيل [illegible] التدوين لعدم شعورهم بالحاجة إليه، وكان حقّهم في هذا العصر أن يكونوا أوسع الناس به علماً؛ لأنّ كتاب الله مؤيّد للحاجة بل الضرورة التي تدعو إليه(٢٣). إنه على الرغم من اشتمال علوم الاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة ... التي صاغها الإنسان الغربي على بعض الإيجابيات إلا أنها عجزت عن حلّ مشكلات الإنسان أو تحقيق الطمأنينة له.

إنّ الإنسان يحب المال والتملك وحيازة الأشياء، يحب أن يلبي حاجات الجسد والنفس، وفوق ذلك كله يحب البقاء والخلود ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠] وبدافع هذه الحاجة الطبيعية الفطرية في نفس الإنسان قام يستثمر المال، ويجمع الثروة، ويحوز الأشياء، ....، وذلك لا يتحقّق باستغلال الناس وتحويلهم إلى قطعان من العبيد لخدمة أصحاب الثروة، كما لا تتحقّق العدالة الاجتماعية في ظلّ نظام اقتصادي رأسمالي اكتسح العالم، ولا في ظلّ علوم اقتصاد نشأت وترعرعت في ضوء ذلك النظام. كيف لهذه العلوم أن تجهل سنن الله في النفس الإنسانية وأنّ الناس متساوون في الخلق؟

إنّ المجتمعات الغربية في ظل الاقتصاد الرأسمالي ما زالت تئنّ من جراحاتها الاقتصادية بسبب المقولات الجائرة التي تنظّم حياتها: مثل مقولة "إن شبعت أنا فلا عليّ أن يموت غيري"، ومقولة: "اكتسب أنت لآكل أنا" وقد سبق أن أسقط الوحي هاتين المقولتين من جذورهما، فأوجب إيتاء الزكاة ردّاً على المقولة الأولى. وحرّم الربا ردّاً على المقولة الثانية(٢٤) فلتحقيق التكامل المعرفي في علوم الاقتصاد لا ينبغي لهذه العلوم الجهل بطبيعة الإنسان الذي هو موضوع هذه العلوم وغايتها، فالإنسان هو المخلوق المكرّم، وهو الخليفة في الأرض، أما المال فهو خادم للإنسان وليس سيّداً له، هو وسيلة لا

غاية، ولذلك لا يمكن إقصاء السنن والقوانين الناظمة لحياة الإنسان عن تلك العلوم التي أثبت الواقع المعاصر فشلها الذريع؛ لابتعادها عن هذه السنن في إقامة مبادئها وفلسفاتها وغاياتها ووسائلها.

إنّ استقرار النظام الكوني قانون منضبط يوحي بوجود قوة مطلقة تحافظ على بقائه مستقراً، وهذه من السنن الناظمة لحياة الإنسان، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] وينعكس هذا القانون على حياة الإنسان، فاستقرار الكون استقرار للإنسان، ونظامه ينعكس على نظام الإنسان ويرتبط بحياته، فكيف للإنسان أن يجهل هذه السنة و هو يقيم علومه؟ أو وهو يتعامل مع مظاهر هذا الكون من سماء وأرض وإنسان وحيوان ونبات، وبرّ وبحر؟ ألا يولّد إغفال هذه السنن أزمة للعلوم الإنسانية والاجتماعية فضلاً عن العلوم الكونية ؟ فكيف تنشأ علوم طبيعية أو إنسانية بعيداً عن سنن الفطرة والإيمان!

ويشير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ٣٥] إلى ضرورة توظيف هذه المسخرات أو السنن التسخيرية لنفع الإنسان والإنسانية، وتبين الآيات بعد الحديث عن هذه السنن أنّ إبراهيم عليه السلام يتوجه إلى الله بأن يحفظ نعمة الأمن على البلد الحرام، وأن يجنبه عبادة الأصنام لما لها من أثر خطير في إفساد الرؤية القرآنية الكونية للإنسان، ومن ثم تعطيل طاقاته. وليظهر ذلك التكامل بين تسخير ما في الكون والتوجه إلى الله الواحد بالعبادة.

إذن, السنن الإلهية الكونية منها والإنسانية والاجتماعية تعدّ أساساً مهمّاً وركيزة رئيسة من ركائز التكامل المعرفي في كل علم يبحث في الكون أو الحياة أو الإنسان. ولا يتأتى لهذه العلوم أن تثمر يانعاً إلا بقيامها على فهم صحيح لتلك القوانين الناظمة في الحياة. وقيام هذه العلوم في الغرب على النحو الذي نراه لا يعدّ دليلاً ينقض ما نقول بل يؤيده، فالزلزال الاقتصادي الذي ضرب اقتصاديات جنوب شرقي آسيا سنة (١٩٩٧)لم يتمكن عشرات الآلاف من المتخصصين في الاقتصاد من إيقافه.والهزات الاقتصادية التي وقعت للاقتصاد الغربي عموماً والأمريكي خصوصاً في سنة (٢٠٠٨) يؤكد أن الاحتكام لأسس الوحي وهداياته ضرورة من ضرورات المعرفة الإنسانية.

المبحث الثالث
في مجالات التكامل المعرفي

اتصف الخطاب القرآني بالعمق والشمول في القضايا التي توجّه بها إلى الإنسان، ولم يكن هذا الشمول إلا تأكيداً لوحدة كيان الإنسان التي تجلّت في آيات القرآن الكريم. ويظهر من الآيات التي نعرضها تلك الوحدة المتكاملة في مجالات الحياة كلها، ويلاحظ في هذه المجالات أنّ الإيمان بالله سبحانه هو منطلق التكامل وأساسه وقاعدته الصلبة المتينة، فمن تلك المجالات على سبيل المثال لا الحصر:

١) تكامل الوحي والعقل لتحديد موقع الإنسان في عالم الشهادة، وتمكين وجوده وسعيه من تحقيق الغاية منهما، فالوحي يمد الإنسان بالمعرفة الكلية والغايات الربانية، والعقل هو وسيلة الإنسان في العلم بعالم الشهادة، وما ينطوي عليه هذا الكون من شؤون الفطرة من سنن وطبائع وإمكانات ليسخرها ويقوم على أمرها بالإصلاح والإعمار على ما يقتضيه التوجيه الإلهي والغاية الإلهية الخيّرة[٢٥].

٢) تكامل مصادر المعرفة، وهما: الوحي والكون، فالوحي هو كلام الله تعالى الذي وصف الكون والعالم

والإنسان أدق وصف وأصدقه، والكون خلق الله الذي يمثل فعله في هذا الوجود، فقوله سبحانه يتكامل مع فعله، وفعله كذلك يتكامل مع قوله، فكيف ننتج علوماً طبيعية أو إنسانية بعيداً عن قول الله سبحانه وهديه. ويذكر بعض الباحثين أنّ هذه العلاقة بين مصادر المعرفة هي علاقة تكامل وتداعم فيما بينها، نافية لكل تعاند أو تشاكس، فينظر إلى مصادر المعرفة الإنسانية في سياق تكاملي بحيث تكمل إحداهما الأخرى دون أفضلية مطلقة لهذا أو ذاك، وإنما كل واحدٍ من هذه المصادر في مجال بعينه هو الأكثر كفاءة وفاعلية، وهو في ذات الوقت محتاج غير مستغن عن بقية المصادر المعرفية المباينة، ليكون منتوج هذه العلاقة التكاملية وجماعها ماثلاً في مفهوم البصيرة القرآني أو نور القلب الذي يعني جماع الكفايات والإدراكات الحسية والعقلية والحدسية على السواء[٢٦].

٣) تكامل الإعمار المادي للكون مع استقامة النفس وانضباطها الخلقي والسلوكي التي تمثل الحصانة الإيمانية بعيداً عن الإفساد، كما اخبر سبحانه بقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[الأعراف: ٧٤]، فالإفساد مناقض للعمران. والإعمار المادي إذا أفلت زمامه من الحصانة الإيمانية فلن يحقّق للإنسان أمناً ولا أماناً ولا سعادة وطمأنينة! وتشير فاصلة الآية التي تنهى عن الإفساد في الأرض إلى أنّ الإفساد يناقض مهمة الخلافة التي تقتضي العمران ويعوّق وظيفتها، وقد قضت السنن الإلهية بأن الإفساد في الأرض يؤدي إلى هلاك وزوال الحضارة والعمران.

٤) تكامل إعمار الكون بإنشاء دور العبادة مع صدق التوجّه إلى الله تعالى بالقبول، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة: ١٢٧]. ووجه الدلالة هنا أنّ عملية الإعمار المادي والمعنوي للكون تهدف إلى تحقيق مقصد العبادة؛ لضرورتها وأهميتها في حياة الأفراد والمجتمعات فهي صمام الأمان الروحي والنفسي، وهي قاعدة التوازن في حياة الإنسان. هذا الإعمار مقصدي لا يقف عند حدود تزكية الأنفس بل يشملها ليصل إلى تحقيق العبودية لله في مجالات الحياة ونظمها. فماذا يقول علماء النفس والاجتماع في إصلاح الفرد والمجتمع! وكيف يضعون حداً لسلوك الانتحار في حياة الأفراد في المجتمعات في ظلّ حياة مترفة واستهلاك مادي شره!

٥) تكامل المهام المعرفية في المجتمع المسلم، فليس مطلوباً من المسلمين جميعاً أن يكونوا علماء فقه وفتوى، بل لو انبرت طائفة لأداء تلك المهمة لتحقّق التكامل في المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] قال ابن عاشور :وأشعر نفي وجوب النفر على جميع المسلمين وإثبات إيجابه على طائفة من كل فرقة منهم بأنّ الذين يجب عليهم النفر ليسوا بأوفر عدداً من الذين يبقون للتفقه والإنذار، وأن ليست إحدى الحالتين بأولى من الأخرى على الإطلاق؛فيعلم أنّ ذلك منوط بمقدار الحاجة الداعية للنفر ،وأنّ البقية باقية على الأصل،فعلم منه أنّ النفير إلى الجهاد يكون بمقدار ما يقتضيه حال العدو المغزوّ ،وأنّ الذين يبقون للتفقه يبقون بأكثر ما يستطاع،وأنّ ذلك سواء"[٢٧].فكما أنّ المهام متكاملة، فالمعارف والعلوم ينبغي أن تتكامل، فلا يصح لعلم الفقه مثلاً أن يبتعد عن علم النفس أو علوم التربية والاجتماع. وليس مطلوباً من المسلمين جميعاً أن يتخصّصوا في الفقه والفتوى، بل لو انبرت طائفة لأداء تلك المهمة لتحقّق التكامل في المجتمع المسلم، وكذلك لو انبرت طائفة لتعلم الطب، وطائفة لتعلم الهندسة ... .

٦) تكامل أنظمة الشريعة مع متطلبات الإنسان وحاجاته. فقد تميّز الإسلام ببيان مجمل أنظمة الحياة العقدية والتشريعية، وهي أنظمة شملت مجالات حياة

الإنسان كلها: الفردية والجماعية، فهناك نظام العقيدة، ونظام العبادة، ونظام الحكم والسياسة والعلاقات الدولية، ونظام المعاملات المالية، ونظام الأسرة والأحوال الشخصية، ونظام القضاء، ونظام العقوبات والقصاص، ...، وكلها أنظمة ضبطت أسس التعامل المستقيم مع الخالق جلّ جلاله، ومع أفراد الوجود الإنساني والكوني كلّها.بل إنّ التكامل متحقّق بجلاء في كل نظام من هذه الأنظمة، فالنظام العقدي نظام متكامل، والنظام الأخلاقي نظام متكامل، ونظام العبادة نظام متكامل...، وصدق الله سبحانه القائل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾[المائدة: ٣] فيتأكد هنا أنّ التكامل سنّة إلهية يحكم قانونها أعماق النفس والحياة الإنسانية. فكيف يمكن للعلوم الباحثة في الإنسان أن تعطّل تلك السنن في النفس الإنسانية، ثم تريد أن تقنّن للإنسان قوانين السياسة والاقتصاد والتربية والاجتماع والتاريخ؟

٧) هناك تكامل على الصعيد النفسي والقيمي، وقد تبين من دلالات آيات كثيرة، منها على سبيل التمثيل لا الحصر، قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ١ - ٤] فالآيات الكريمة بينت أنّ السؤال عن المتاع المادي وحده لا ينبغي، ولا ينبغي أن تذهب النفس في التفاعل معه كل مذهب بحيث يكون الهمّ المسيطر على الإنسان، صحيح أنّه من مطالب النفس وحظوظها المباحة. لكن، هناك أمور ينبغي للنفس أن تكون أشدّ تفاعلاً معها، كذكر الله تعالى وتلاوة آياته فضلاً عن إقامة الصلاة والإنفاق في وجوه الخير.إنّ الإيمان الحقّ هو في التفاعل مع ذلك كلّه. والذي ينبغي أن يكون في الصدارة هو أن يتعلّم أن يعطي قبل أن يأخذ، وأن يسأل حسن الباطن كما يسأل كمال الظاهر. فأن تتكامل النفس مع القيم الضابطة للسلوك فتنسجم معها لترتقي إلى الكمال من متطلبات الإيمان الحقّ، وهو الإيمان الفاعل في الوجود الذي يحفظ الإنسان من انفصام الشخصية ويحصنها من التشتت العلمي والمعرفي، لما أنّ العلم والمعرفة يستندان وينهضان ويثمران على قاعدة الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

٨) وتكامل معرفة عالمي الغيب والشهادة مجال آخر من مجالات التكامل، لِما إنّ هذين العالمين حاضران بقوّة في الكيان الإنساني، فروح الإنسان التي لا يعرف طبيعتها وماهيتها تمثل عالم الغيب، كما يمثل الجسد وحظوظه عالم الشهادة، فكيف يمكن للعلوم الإنسانية والاجتماعية أن تعزل الجانب الغيبي في كيان الإنسان وتدرسه على أنه جسد ومادة فحسب؟إنّ التكامل الذي تقرر في نصوص الوحي يؤكد الوحدة الكاملة بين الروح والجسد في الكيان الإنساني. ولذلك شمل التشريع القرآني تطويراً للإنسان في هذين الجانبين أن يعقل ويفكر ويعي ويدرك، وأن يملأ نفسه إيماناً ويقيناً وتزكية.

ومظاهر التكامل متحقّقة في أبسط مظاهر الحياة الإنسانية، فدراسة أيّ ظاهرة اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، ... يقتضي النظر إليها في ضوء حقائق الوحي الخاتم، وإلا فستكون نتائج دراسة تلك الظواهر وفهم أسبابها وتشخيص علاجها إلى الفشل أقرب، كما يبدو في نظريات التنمية المعاصرة المستوردة التي أرادت النهوض بالإنسان العربي والمجتمع العربي في ضوء الفلسفة الغربية.وعليه," فإن التكامل المعرفي ليس عملية معرفية فحسب، وإنما هو عملية نفسية تربوية تستهدف تحرير العقل المسلم، وتربي الوجدان المسلم، وتنمي دافعية المسلم للإنجاز والإبداع والإصلاح"[٢٨]. فقد غاص التكامل في أعماق النفس الإنسانية فأحدث فيها تكاملاً مع القيم، فصاغ الإنسان من باطنه صياغة

تتجلى آثارها العملية على سلوك الإنسان وأخلاقه في الواقع العام.

المبحث الرابع
في مقاصد التكامل المعرفي وغاياته

لتكامل المعرفة مقاصد وغايات تنعكس على مجمل حياة الإنسان العلمية والمعرفية فضلاً عن الاجتماعية والاقتصادية، وتوحّد كيان الفرد والمجتمع، وتنشئ الحياة الإنسانية على أساس صحيح.ويظهر أنّ هذا التكامل يحقّق المقاصد والغايات الآتية:

١) تصحيح مفاهيم الأجيال حول الرؤية الكلية للكون والحياة والإنسان على وفق هداية الوحي، فالتكامل المعرفي المتحقّق بهداية الوحي يستطيع أن يفسّر مظاهر الوجود الكوني والإنساني تفسيراً بعيداً عن الظنون والأوهام يكشف عن الرؤية الكلية التي انتظم بها هذا الوجود. عندها تتآخى الحقيقة الدينية مع الحقيقة العلمية دون أن تنفصل إحداهما عن الأخرى أو تشنع عليها، كما هو حاصل في عصر التشتّت أو التشرذم المعرفي، حيث يزندق العلمُ أو يفسّق باسم الدين، يُسفهالدينأو يُهزأ باسم العلم!

إنّ التآخي بين حقائق الدين والعلم يؤكد وحدة مصدر الكتابين: كتاب الوحي المسطور، وكتاب الخلق المنظور، فالأول: قول الله تعالى، والثاني: فعله سبحانه، فكيف يمكن أن يتنافى قوله مع فعله! أو يناقض فعله قوله جلّ جلاله؟ فضلاً عن أنّ قوله تعالى في القرآن يفسّر فعله في الوجود. وكذلك فعله تعالى في هذا الكون يوضّح للعاقل قوله جلّ جلاله. وكيف يتسنى للعلوم الإنسانية والاجتماعية حتى الطبيعية أن تفلت من زمام هذه الحقيقة الجامعة، فتتعامل مع مخلوقات الله دون أن تعترف له بالخالقية؟ وكيف لها أن تفسّر مظاهر خلقه في الوجود تفسيراً صحيحاً؟ والواقع اليوم يشهد كيف فسدت حياة الناس حين لم تقم هذه العلوم شأناً للإيمان أو وزناً للقيم والأخلاق؟

إنّ مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر: ٢٧-٢٨] يحدّد الغاية النهائية من العمل البحثي في أرجاء الكون، وهذه ثمرة القراءة التسخيرية والبحثية والعلمية لجغرافية الأرض وطبيعتها، أن يتوجه العبد إلى ربّه، وأن يعرف بنفسه الخالق الجليل سبحانه معرفة تورث الخشية والتعظيم، وتربط آثار فعله سبحانه في الطبيعة بالإيمان به. وهذا ما عجزت عن تحقيقه العلوم الطبيعية والتطبيقية المعاصرة اليوم.

٢) ضبط مسار العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، ومقاربة نتائجها من الصحّة والدّقة، فاستناد هذه العلوم إلى ركيزة الإيمان بالله الخالق يشكل معياراً مهماً لتلك العلوم ونتائجها، فالإنسان مخلوق مكرّم لا تجوز إهانته واحتقاره، وتعذيبه والاعتداء عليه، وإنهاء حياته بدون حقّ كما بيّن الله تعالى في كتابهوهو مكرّم لا يجوز استغلاله وظلمه واستعباده بدافع طلب المال أو دافع الشهوة أو الشهرة...، وعلوم المال والاقتصاد مثلاً مطالبة بأن تتنبّه إلى أنّ المال وسيلة رحمة للإنسان لا غاية. ولو كان هذا البعد الأخلاقي يهيمن على علوم المال والاقتصاد لما أمسى الاقتصاد العالمي اليوم يترنح تحت وطأة هذه الفلسفة التي سحقت كرامة الإنسان ومحقت أخلاقه، وجعلته عبداً للمادة.

فالتكامل المعرفي المنبثق من قاعدة الإيمان بالله يوجّه مسارات العلوم نحو المفيد والنافع منها للإنسان والإنسانية، فعلم لا يدفع إلى عمل أو خير لا قيمة له ولا فائدة منه في نظر الشريعة، بل قد يصل الأمر إلى تحريمه كالسحر والشعوذة والكهانة والتنجيم. وعلم يشكّك في حقائق الإيمان وينبذ الفضيلة والعفّة والحياء علم مكروه منبوذ. وعلم يصل في نتائجه إلى إنكار الآخرة أو حقائق الإيمان علم محرّم، وعلم يبيح ما حرّم الله كالربا

والاحتكار و الغش والخداع والغبن ... علم ضال غير أخلاقي؛ لأنّ نتائجه كارثية.

لقد أورد القرآن الكريم حقائق كثيرة في مجالات التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية والسلوك والنفس والزراعة والطب ... وتعدّ هذه الحقائق قواعد تأصيلية موجهة وضابطة لتلك العلوم. ولنضرب لذلك أمثلة يتضح بها الكلام:

ألا يعدّ قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[البقرة: ٢٧٥] قاعدة لعلوم الاقتصاد والمال؟

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الجاثية: ١٨] دستوراً للسياسة ينصّ على أنّ شريعة الله هي الحاكمة؟

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً﴾[الكهف: ٥٩] منطلقاً في تأصيل علم الاجتماع؟

وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] رأس الحكمة في الطب؟

وقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾[يوسف: ٤٧] توجيهاً لعلم الزراعة؟

وقوله تعالى: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾[الكهف: ٩٦] دعوة إلى فهم خصائص العناصر وتوظيفها؟

إن مهمة العلوم الاجتماعية الإسلامية في أي مجتمع هي توليد الفكر الاجتماعي في مختلف مجالات الحياة السياسة والاقتصادية والاجتماعية الفردية والجماعية والمؤسسية، ويقوم الفقه باستخلاص القواعد والضوابط التي تنظم العلاقات القانونية والبنى المؤسسية في المجتمع منها، وهما بذلك يتكاملان تكامل أجنحة الطائر في خدمة مسيرة الأمة[٢٩].

وهكذا، نجد الوحي يضع دعامات أو قواعد ضابطة أو أسس موجهة لتلك العلوم، ومع ذلك يتقرر أنّ القرآن على مختلف الصعد كتاب هداية وإعجاز ومنهج حياة.

٣) جمع شتات الإنسان جسداً وروحاً، وعقلاً ووجداناً، وفكراً وسلوكاً، وفق ما هدى إليه الوحي دون أن تضيع البوصلة التي تحدّد اتجاهه في الحياة، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ٧٩]. لقد بين القرآن ما يعيشه الآخرون من تشتت معرفي ضاعت معه البوصلة وضلّ فيه الاتجاه، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾[الروم: ٦ ـ ٨] فالأدلة القاطعة على الهداية إلى الحق قائمة تحتاج إلى وعي وتعقّل! والتشتت حاصل لهم من غفلتهم عن الآخرة التي ترتب على انعدام الإيمان بها ضلال المقصد والغاية وانعدام الرؤية الكلية للكون والحياة والإنسان. قال الرازي: "يعني علمهم منحصر في الدنيا وأيضاً لا يعلمون الدنيا كما هي،وإنّما يعلمون ظاهرها وهي ملاذها وملاعبها، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر، ولا يعلمون فناءها"[٣٠]. وقال ابن كثير:" هم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة،كأنّ أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة"[٣١] قال في الظلال: هذا الوجود الهائل، تحكمه نواميس وسنن مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه، والذي لا يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود؛ ولا يتصل حسّه بالنواميس والسنن التي تصرّفه، يظلّ ينظر وكأنّه لا يرى؛ ويبصر الشكل الظاهر والحركة الدائرة، ولكنه لا يدرك حكمته، ولا يعيش بها ومعها"[٣٢].

وقال أبو السعود: وهذا من أفعالهم المترتبة على علومهم. وتنكير "ظاهراً" للتحقير والتخسيس،أيّ: يعلمون ظاهراً حقيراً خسيساً من الدنيا وهم عن الآخرة التي هي

الغاية القصوى والمطلب الأسنى، هم غافلون لا يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدي إلى معرفتها من أحوالها ولا يتفكرون فيها[٣٣]. قال الزمخشري: وفي الإبدال من النكتة أنه أبدله منه وجعله بحيث يقوم مقامه ويسدّ مسدّه؛ ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي لا يتجاوز الدنيا[٣٤]. فعلومهم الدنيوية علوم غير قادرة على التسبيح بحمد الله في هذا الوجود. ومن ثمّ لا يتحقّق اكتمال شخصية الإنسان الذي يقتصر على علوم ظاهر الحياة الدنيا. فثمة فراغ روحي وجداني في كيانه يعبر عن قصور معرفي كبير، فالقصور المعرفي هو المقابل للتكامل المعرفي.

٤) تحقيق الطمأنينة والاستقرار في الحياة الإنسانية من خلال التفسير الصحيح لكل ظواهر الكون والإنسان والحياة بعيداً عن الجحود والكفران. إنّ الأصل في العلوم أن تكون وسائل هادية للإنسان ومنيرة له طريق الحياة. ومن شأنها أن تسهم في تماسك المجتمع وتعاونه؛ لأنّ الشعوب تنهض بالعلم وتنحدر وتهبط بالجهل، ومن المؤكد أننا لا نتحدث عن علم أسند تفسير هذا الوجود إلى الصدفة العمياء والظلمة الصمّاء فنسب تفسير كل ظواهر الوجود ومظاهره إلى الطبيعة فأورث الكفر والإلحاد في الأرض، ولا عن علم حطّم كل معاني الأمن والطمأنينة في حياة الناس من خلال سباقه المحموم في تصنيع لذرّة وأسلحة الدمار الشامل، ولا عن علم كرّس مفهوم الطبقية بين الناس وجذّرها حتى باتت حفنة من الأثرياء تمتلك مقدرات الأمم والشعوب وأكل الفقر –في ظلّه– أكثر من ثلثي شعوب الأرض، ولا عن علم تجرّد من القيم والأخلاق فأدّى إلى انزلاق قطعان كبيرة من الناس في مستنقع الفاحشة والرذيلة والمخدرات والجريمة واللهو واللعب، بل نتحدّث عن ذلك العلم نفسه حين يرتكز وينطلق من قاعدة الإيمان
بالله واليوم الآخر فيشكّل تكاملاً وجمالاً مع بقية علوم الإنسان والطبيعة، فيورث حقائق آمنة. فالعلم الذي يأخذ بيد الإنسان إلى السعادة والأمان هو العلم الذي يتكامل مع حقائق الإيمان ويسير في ضوء هدايته.

إنّ التكامل المعرفي يقي الإنسان من طغيان الفكر الحاقد وطوفان العلم الجاحد اللذين يدفعانه إلى الاستكبار وانبعاث أوهام النفس القارونية القائلة: إنّما أوتيته على علم عندي، ويغفل عن أنّ فوق كل ذي علم عليم، ويغفل عن الابتلاء بالعلم. إنّ الفضل في كل تقدّم علمي أو معرفي هو لله وحده الذي هدى الإنسان إلى ما يصلحه، ومنحه نعمة العقل والإدراك وأرشده إلى ما ينفعه. ولأنّ الإيمان بالله تعالى يعدّ القاعدة الأولى التي ينطلق منها العلم لتحقيق التكامل المعرفي وإنّ نتيجة هذا العلم وثمرته الإسهام في تحقيق الحصانة الخلقية التي تؤدّي إلى شكر الله تعالى، وتحول بين الإنسان وبين استعلائه وتكبره في الأرض بما أوتي من علم ومعرفة! فيتفكر في آلاء الله ويسبح بحمده، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ١٩١].

٥) إثارة وسائل الوعي والإدراك في الإنسان وكشف طاقاته، ثمّة مقصد هام وغاية عظمى من غايات تكامل المعرفة، تنعكس آثاره على الإنسان نفسه، فتفعيل وسائل الإدراك بوصفها منافذ معرفية أدت به إلى اليقظة والفطنة في تعامله مع مفردات الوجود الإنساني وفق الرؤية الكلية، فهو يردّ الصنعة إلى صانعها، ويسبح بحمد الله تعالى. إنّ الإنسان يمتلك طاقات هائلة وقدرات غير محدودة، فقدرته على التأمل والنظر والتفكر والتدبر والتعقل والتبصّر لا يدانيها أو يقاربها مخلوق آخر، ولذلك كان خليفة في الأرض، وبذلك يستخرج القرآن مكنون الطاقة الإنسانية في صناعة المذهلات والخارقات عبر ترجمته عن انتظام الكتابين في تأكيد وحدانية الخالق جلّ جلاله. وقد نعى القرآن الكريم على أولئك الذين يعطلون طاقاتهم وشنع

عليهم، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾[الأعراف: ١٧٩]. وكيف لهؤلاء أن يسيروا في اكتشاف حقائق الكون المؤدّية إلى الإيمان دون أن يفعّلوا كل ما لديهم من وسائل الإدراك. كما قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

وفي قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٢ + ٤] إثارة لملكة التفكر والتعقل لدى الإنسان ليقوده إلى الإيمان واليقين! ويعرف قدرة الله وحكمته وباقي صفاته! ويحقّق التسبيح بحمد الخالق الجليل الذي هو الغاية النهائية لمجهوده الذهني والفكري وثمرة علومه التي توصل إليها.

لكن، في ظلّ انفلات المعرفة وتشتّتها وعدم ارتكازها على قاعدة الإيمان تتعطل طاقات هائلة لدى الإنسان، كالطاقة الروحية مثلاً التي لا تجد لها متنفساً فتحول بينه وبين ذكر الله تعالى وتسبيحه، فتضيق حياة الإنسان، ولربّما يقدم على الانتحار عند مواجهة أيّ موقف لا تحتمله نفسه؛ لأنّ طاقته الروحية التي تستوعب كل المواقف الصعبة معطلة تماماً، أو لا وجود لها بالأحرى.إنّ انضباط النفس بالقيم والأخلاق لا يمكن أن يتوافر للإنسان بدون الإيمان بالله تعالى، فتبقى القيم بلا إيمان قيم نفعية مادية لا تسعف الإنسان وقت الشدّة والضيق و الأزمات الخانقة، وماذا يمكن أن يقول علم النفس لإنسان أصابته مصيبة!وبأي شيء يسرّي عن نفس الإنسان الذي فقد عزيزاً عليه! وكيف لعلم الاقتصاد أن يمدّ الإنسان بطاقة روحية ليبذل زكاة ماله ونفسه عاشقة له؟ إنّ كل تلك العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية لا تكشف عن شيء من طاقات الإنسان الروحية وما أودع الله تعالى فيه من أسرار، بل لا تملك أن تقدم للإنسان زاداً نفسياً وروحياً أو زاداً معنوياً يخفّف عن الإنسان أعباء الحياة دون أن تتكامل مع الإيمان والعقيدة التي جاءت به رسل الله تعالى أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

الخاتمة:

وبعد، فقد خلصت الدراسة إلى نتائج عديدة نجملها في النقاط الآتية:

١. التكامل المعرفي مصطلح قديم المضمون حديث النشأة يمكن القول فيه إنّه:الإدراك التامّ الواعي للحقائق المتصلة بالوجود الإلهي والكوني والإنساني، وما ينتظم به من سنن، وما ينشأ عنه من علوم ومعارف، تظهر به الآثار العملية والجمالية للمعرفة في ربطها أجزاء ذلك الوجود وانتظام علاقاته وفق هداية الوحي.
٢. التكامل المعرفي ضرورة من ضرورات العلم؛ للوقوف على حقائق الوجود الكوني والإنساني؛ لأنّ الوحي الخاتم هو منطلق التكامل ومعتمده، ويستمدّ الإنسان الخليفة في الأرض هذه الحقائق لينجز المهام التي أنيطت به. وهو في الوقت نفسه ضرورة من ضرورات إعمار الكون –الذي يشكل مهمة إنسانية كبرى لما أنّ الإعمار لا يقوم حقيقة إلا بمعرفة غاية وجود الكون والحياة والإنسان. وهو الأساس الذي يمكن أن يضع حدّاً للتشتت المعرفي والوجداني للإنسان بوصفه إفرازاً للنظم المعرفية القائمة اليوم شرقاً وغرباً، ولذلك يأتي التكامل المعرفي موحداً لمنهج قراءة الكون والحياة والإنسان.

٣. يعدّ الخطاب القرآني ذو الطبيعة الجامعة الشاملة المتكاملة الباعث على تحقيق التكامل المعرفي الذي يقوم ويستند إلى عدّة أسس، هي: الإيمان بالله تعالى، وأسماء الله الحسنى، وخلافة الإنسان في الأرض، والطبيعية الإنسانية، والسنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان.

٤. ثمة مجالات واسعة يبرز فيها التكامل المعرفي من أمثلتها: تكامل الإعمار المادي للكون مع استقامة النفس وانضباطها الخلقي والسلوكي التي تمثل الحصانة الإيمانية. و تكامل الإعمار المعنوي للكون بإنشاء دور العبادة مع صدق التوجه إلى الله تعالى بالقبول.إنّ النظم التشريعية في الإسلام شرعت ما يعرف بفروض الكفاية، وهي تمثل عملية تكامل الأدوار في المجتمع المسلم. وكذلك تكامل علم الغيب مع عالم الشهادة في تصوّر الإنسان وفكره وسلوكه...فكأنّ التكامل المعرفي مبدأ يتفرع عنه أنواع شتى من التكامل الاجتماعي والاقتصادي، ...، كذلك نجد في تكامل أنظمة الشريعة التي بيّنت مجمل أنظمة الحياة العقدية والتشريعية تميز الإسلام ورسالته، فقد شملت تلك الأنظمة مجالات حياة الإنسان الفردية والجماعية.

٥. إنّ للتكامل المعرفي مقاصد ناظمة للحياة الإنسانية، تنعكس آثارها الجمالية في إيجاد الوعي الكامل للإنسان بحيث يعرف موقعه الرئيس بين سائر الموجودات، وتتجلى هذه المقاصد في تصحيح مفاهيم الأجيال حول الرؤية الكلية للكون والحياة والإنسان على وفق هداية الوحي، وضبط مسار العلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، ومقاربة نتائجها من الصحّة والدّقة، وجمع شتات الإنسان جسداً وروحاً، وعقلاً ووجداناً، وفكراً وسلوكاً، وفق ما هدى إليه الوحي دون أن تضيع البوصلة التي تحدّد اتجاهه في الحياة، و إثارة كل وسائل الوعي والإدراك في الإنسان وكشف طاقاته.

والحمد لله ربّ العالمين

الهوامش:

(١) انظر: البغدادي؛ إسماعيل باشا، **هدية العارفين** في **أسماء المؤلفين وآثار المصنفين** – ملحق بكشف الظنون لحاجي خليفة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢، ج١، ص٥٠٣. وانظر: ابن كثير؛ إسماعيل ابن كثير، **البداية والنهاية**، بيروت: دار المعارف، بدون تاريخ، ج١٣، ص٥٥.

(٢) الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٩٥، ج١، ص٥٨٦.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر، بدون تاريخ، ج١١، ص٥٩٨.

(٤) الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، المفردات، تحقيق: محمد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ، ص٣٣١.

(٥) الميداني، عبد الرحمن حسن، ضوابط المعرفة، دمشق: دار القلم، ١٤١٤هـ، ص١٢٣.

(٦) انظر: ملكاوي، فتحي حسن، **مفاهيم في التكامل المعرفي**، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ٦٠ لسنة ٢٠١٠، ص٣٤ ٣٥.

(٧) انظر: المناوي، محمد عبد الرؤوف، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: محمد الداية، بيروت: دار الفكر، ١٤١٠هـ، ص٣٠١.

(٨) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ، ج١٩، ص١٦٩.

(٩) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، القاهرة: دار الكتاب العربي، ج١٠، ص٥٥.

(١٠) أبو السعود؛ محمد بن محمد العمادي. **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ج٤، ص٩٣.

(١١) الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد. **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، تحقيق: عبد المجيد النجار، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ص٧٨.

(١٢) انظر: النورسي، سعيد ميرزا، **الكلمات**، ترجمة: إحسان الصالحي، اسطنبول: سوزلر للنشر، ١٩٩١، ص٤٦٥.

(١٣) انظر: دراز، محمد عبد الله، **النبأ العظيم**، الدوحة: دار الثقافة، ١٩٨٥، ص١٣+ ١١٥.

(١٤) ابن كثير؛ إسماعيل بن كثير القرشي، **تفسير القرآن العظيم**، بيروت: دار الكتب العلمية، بلا تاريخ، ج٢، ص٧٦٨.

(١٥) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، **أزمة الإرادة والوجدان المسلم**، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٥، ص٦٨.

(١٦) أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**، تحقيق: بسام الجابي، قبرص: الجفان والجابي، ١٤٠٧هـ، انظر: ص٤٥ ٤٦.

(١٧) رضا؛ محمد رشيد، **تفسير القرآن الحكيم** الشهير بتفسير المنار، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣، ج١، ص٢١.

(١٨) أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار المعرفة، بدون تاريخ، ج١، ص٢٨٩.

(١٩) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **الإتقان في علوم الإتقان**، بيروت: المكتبة الثقافية، ١٩٧٣، ج٢، ص٣٣٨.

(٢٠) البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، تحقيق: مصطفى البغا، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٠٧، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج٥، ص٢٢٣٨، ح٥٦٦٥.

(٢١) أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**، مصر: دار السلام، ٢٠٠٩، ص٨٣.

(٢٢) الأصفهاني، **تفصيل النشأتين**، مصدر سابق، ص١١٢.

(٢٣) رضا. **تفسير المنار**، مصدر سابق، ج٩، ص٤٨٢ ٤٨٣.

(٢٤) انظر: النورسي، **الكلمات**، مصدر سابق، ص٤٧٣ ٤٧٤.

(٢٥) انظر: أبو سليمان، عبد الحميد أحمد، **أزمة العقل المسلم**. الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩١، ص١٣+ ١١٤.

(٢٦) انظر: سليمان، عصمت محمود، **التكامل المعرفي وفق المنظور القرآني: قراءة تحليلية في ثنايا سورة الكهف**، بحث مخطوط قدم للندوة العالمية حول التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون الذي نظمته جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان، ٢٠٠٩، ص٢٥.

(٢٧) ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، تونس: دار سحنون، ١٩٩٧، ج١١، ص٦١.

(٢٨) إبراهيم، أبو بكر محمد، **التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية**، الولايات المتحدة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ٢٠٠٧، ص١٠١.

(٢٩) أبو سليمان، **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**، مرجع سابق، ص١٩٨.

(٣٠) الرازي. **مفاتيح الغيب**، مصدر سابق، ج١٢، ص٢٠٦.

(٣١) ابن كثير. **تفسير القرآن العظيم**، مصدر سابق، ج٣، ص٥٦٠.

(٣٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن**، بيروت: دار الشروق، ج٥، ص٤٧٩.

(٣٣) أبو السعود محمد بن محمد العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بلا تاريخ، ج٧، ص٥٠ ٥١.

(٣٤) الزمخشري، جار الله محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التأويل**، بيروت: دار الكتاب العربي، بدون تاريخ، ج٣، ص٤٧٤.